وقد عثر عليها بعد فترة شك طويلة خلال دراسته في امريكا واثناء ذلك كانت مناقشاته المحايدة مع الصهيونيين تكشف له شيئا فشيئا عن زيف الوعي الصهيوني بالتاريخ والثغرات الفكرية القائمة في الفكر الصهيوني عامة ·· وهكذا كان لزملائه في الجامعة من الصهاينة الفضل الاول في ابراز طبقة الثلج الهشة التي يقفون عليها دون احساس بتيار التاريخ الجوفي الذي لا ينقطع تدفقه من تحتها · ومنذ ذلك الحين عثر على نفسه واصدر عدة كتب لي اقل من عامين كان اولها « نهاية لتاريخ ـ مقدمة في دراسة بنية الفكر الصهيوني » ·

اما عن المسائل الفلسطينية فان الدكتور المسيري كان يعترف ايضا بشجاعة انه لا يعرف عنها الكفاية لان اهتمامه الاول كان تجريد الخصم من اسلحته الفكرية والعقائدية وبهذا يفقد مبرر وجوده · ومع ذلك لا بد ان يهتز القارىء حين يرى اول ما في الموسوعة عنوانا كبيرا هو « امام الله والامة والتاريخ » · وهذه كلمة كونية « باسكالية » وردت في قرارات المؤتمر العربي الفلسطيني في اغسطس (آب) ١٩٢٢ · ومع ذلك فالكثير من الفلسطينيين انفسهم لم يسمعوا حتى عن هذا المؤتمر او على الاقل قراراته ·

وربما يسعد المؤلف لو علم ان اجتماع مجلس منظمة اليونيسكو العربية الاخير في بغداد في اواخر ابريل (نيسان ١٩٧٦) قد انصب على موضوع واحد فقط هو اخراج موسوعة فلسطينية في غضون ثلاث سنوات ورصد المبلغ اللازم لها بعد تأجيل عدة مرات، وبهذا تحققت امنية المؤلف بطريقة اخرى غير متوقعة · فقد كان في الاصل يتمنى مولد موسوعة عربية شاملة (وقد بدأ ذلك ايضا يتحقق) · واذكر انه قال لي قبل سفره الى الولايات المتحدة حيث يعمل مستشارا ثقافيا لمكتب الجامعة العربية في مقر الامم المتحدة بنيويورك ـ انه حاول جذب اهتمام هيئة عربية لتؤلف لجنة باحثين تستخدم الموسوعة الحالية كنقطة بدء وكاطار للبحث يمكن طرحهما ـ بالمناسبة ـ بعد تخطي المراحل الاولية ·

وقد سافر الى امريكا متألما لانه لم يجد اهتماما كافيا بهذا المشروع فقد كان يريد توظيف بعض الخبرات التي تراكمت لديه ، كما كانت لديه بعض الاسئلة التي تتطلب الاجابة عليها لجان من الباحثين · ومن هنا قرر في غمرة احساسه بالاحباط ان يقول كل ما عنده في موضوع الصهيونية وان يكف عن الكتابة عنها ويتفرغ لاصدار كتاب « عن موقف العرب من فكرة التقدم »·

ولكن الدكتور المسيري سرعان ما استيقظ من سباته الشتوي بعد الحملة الضارية للصهيونية عقب ادانة الامم المتحدة لها بالعنصرية ، بحيث وجد نفسه غارقا في القضية حتى اذنيه من جديد فأرسل مقالا الى جريدة نيويورك تايمز وفوجىء بأنه لم ينشر فيها وحدها وانما في جريدتين اخريين · وبعد ذلك انهالت عليه الدعوات من الجامعات ومحطات التليفزيون المحلية الاوروبية لالقاء محاضراته او الاشتراك في مناظرات سياسية · وهكذا طاف الولايات المتحدة وبالطبع ساعده على ذلك انه اصلا استاذ في الادب الانجليزي وبالذات في الشعر (وهو ميدان تخصصه) وكان اول منشوراته هو ترجمة مختارات من اشعار المقاومة الفلسطينية في الستينات ·

واخيرا فان المؤلف ـ وهو بالمناسبة يعد الان كتابا بالانجليزية عن الصهيونية والعنصرية ـ كان قد نبه في مقدمة موسوعته الى ان «هذه الموسوعة رغم قصورها كان لا بد ان تكتب وتنشر بسبب الضرورة التاريخية الملحة ·· والمعرفة